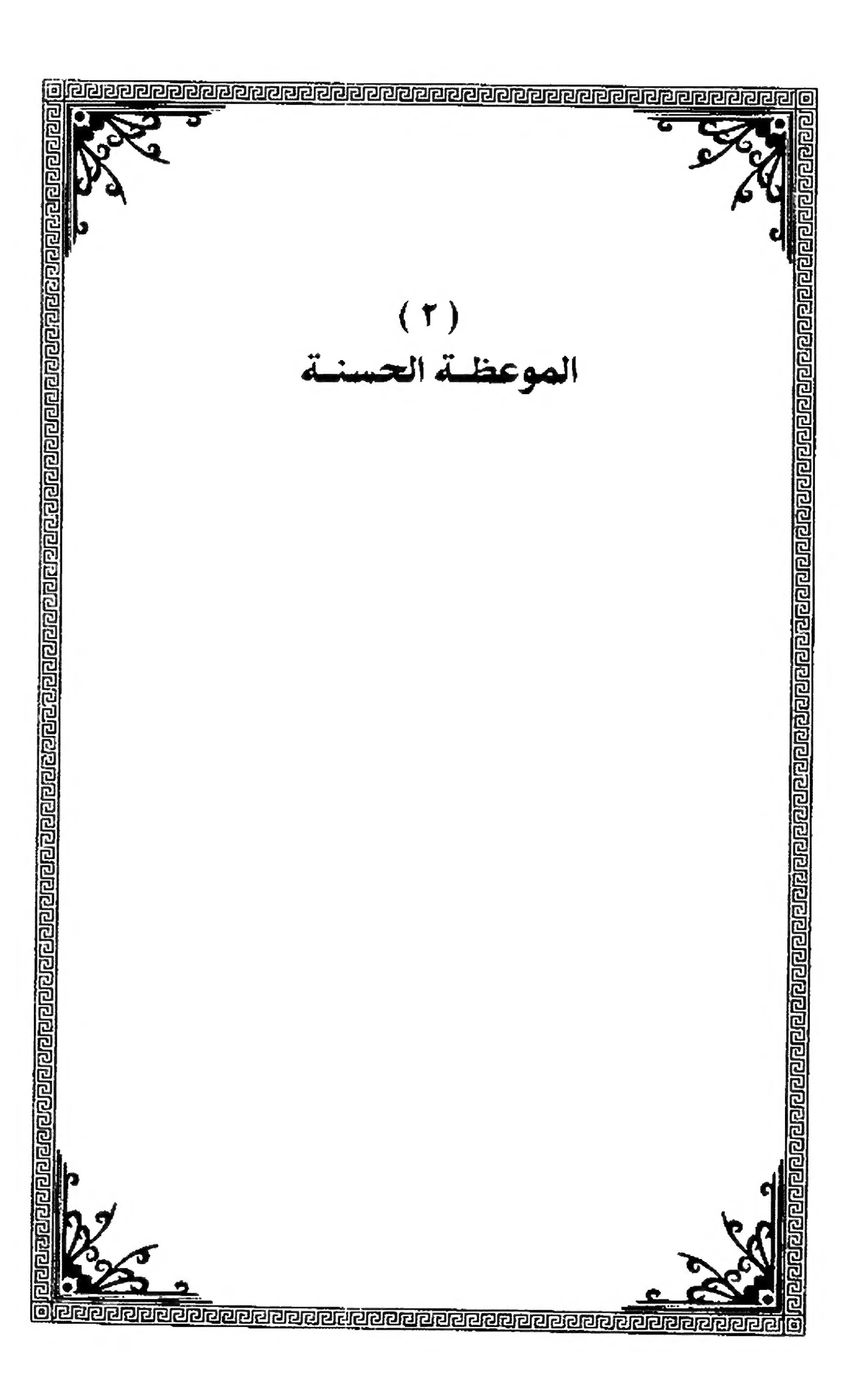


تأليف
الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر سيدي
محي الدين بن عربي الحاتمي الطائي

المجلد الأول

دار الرسول الأكرم (ص)

دار المحجة البيضاء



(٢)
الموعظـة الحسـنة

هـذه الرسـالة نقلتهـا من نسخة مخـطوطة بمكتبـة الأزهر الشـريف كتبت عام ١٠٠٦ ست وألف من الهجرة الشريفة .

وهي تحت رقم ٢٠ خاص ١٣٨٤ عام ـ تصوف .

وجاء في آخر الرسالة ما يلي :

«كتبـه أقل عبـاد الله ، وأفقـرهـم ، خـادم الفقـراء ، وتـراب أقـدام العلمـاء : (درويش مصلح الدين أحمـد) : الخلوتي طريقـاً ، البلغرادي بلداً ، ثم الدمشقي ، غفر الله له ولوالديه .

في شهر صفر سنة ست وألف من الهجرة ـ عام ١٠٠٦» اهـ .

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله ربّ العالمين . .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وسصحبه أجمعين .

قال الشيخ الأكبر : محي الدين بن العربي الحاتمي الطائي الأندلسي (قدس سره العزيز): هذا جزء سميته :

الموعظة الحسنة :

قيدت فيه طرفاً من مواعظ الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام ، والفضلاء العاملين من عباده : طلباً للمثوبة من الواهب سبحانه وتعالى :

فمن ذلك ما روى أن الله تعالى قال :

«يا بن آدم : خيري إليك نازل ، وشرك إلي صاعد ، وأنا أتحبب إليك بالنعم ، وأنت تتبغض إلي بالمعاصي .

في كل يوم يأتيني ملك كريم بقبيح فعلك .

يا بن آدم : ما تراقبني ، أما تعلم أنك بعيني .

يا بن أدم : في خلواتك وعند شهواتك اذكرني وسلني أن أنزعها من قلبك ، وأعصمك عن معصيتي ، وأبغضها إليك ، وأيسر لك طاعتي ، وأحببها إليك ، واذكي ذلك في عينيك .

يا بن آدم : أمرتك ونهيتك لتستعين بي وتعتصم بحبلي ، لئلا تعصيني وتنبو[1] عني غاعرض عنك .

أنا الغني ، وأنت الفقير إلي .

إنما خلقت الدنيا وسخرتها لك[2] ، لتستعد للقائي ، وتتزود منها لئلا تعرض عني ، وتخلد إلى الأرض .

أعلم بأن الدار الآخرة خير لك من الدنيا ، فلا تختر غير ما أخترت لك ، ولا تكره لقائي ، فإن من كره لقائي كرهت لقاءه ، ومن أحب لقائي أحببت لقاءه»[3] .

وقال بعض العلماء :

تزود من الدنيا للآخرة ، وطريقها[4] ـ فإن خير الزاد التقوى ـ .

وسارع إلى الخيرات ، ونافس في الدرجات قبل فناء العمر وتقارب الأجل .

وقال بعضهم :

«إيّاكم ومجالسة أقوام يتكلفون بينهم زخرف القول غروراً ، أو يتملقون في الكلام : خداعاً ، وقلوبهم مملوءة غشاً ، وغلاً ، وحسداً ،

---

(١) في المخطوطة «وتنوتي عني» ولا معنى لها .

(٢) لقوله تعالى : ﴿خلق لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً﴾ .

(٣) للحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم ، والإمام أحمد ، والترمذي ، والنسائي عن السيدة عائشة ، وعن سيدنا عبادة بن الصامت (رضي الله عنهما وأرضاهما) : «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» .

(٤) يعني : وطريق الآخرة في هذه الآية .

وكبراً ، وحرصاً ، وطمعاً ، وبغضاً ، وعداوة ، ومكراً ، وخيلاء : دينهم التعصب ، واعتقادهم النفاق ، وأعمالهم الرياء ، واختبارهم شهوات الدنيا ، يتمنون الخلود فيها ، مع علمهم بأنهم لا سبيل لهم إلى ذلك ، و «يجمعون ما لا يأكلون ، ويبنون ما لا يسكنون ، ويؤملون ما لا يدركون» ويكسبون الحرام وينفقون في المعاصي ، ويمنعون المعروف ، ويركبون المنكر .

قال عيسى : «يا بني إسرائيل : أعلموا أن مثل دنياكم مع آخرتكم كمثل مشرقكم مع مغربكم ، كلما أقبلتم إلى المشرق بعدتم من المغرب ، وكلما أقبلتم إلى المغرب بعدتم من المشرق» .

وقال بعضهم لقوم يترددون ، في طغيانهم يعمهون ، ولا يسمعون النداء ولا يجيبون الدعاء ، مولعين[١] مدبرين عن الآخرة معرضين ، وعلى الأعقاب ناكسين ، وعلى الدنيا مقبلين متكالبين تكالب الكلاب على الجيف ، منهمكين في الشهوات ، تاركين للصلوات ، لا يسمعون الموعظة ، ولا تنفعهم التذكرة ، فلا جرم إنهم مهملون قليلاً ، ويتمتعون يسيراً ، ثم تجيئهم سكرة الموت بالحق .

ذلك ما كانوا منه يحيدون ـ شاءوا أو أبو ، فيفارقون محبوباتهم على رغم منهم ، ويتركون ما جمعوا لغيرهم ، يتمتعون إلى أخذهم : حليل زوجته[٢] ، وامرأة ابنه .

وبعل إبنته .

وصاحب (مبراته)[٣] . . .

---

(١) مولعين بعدم إجابة الدعاء إلى طاعة الله تعالى .

(٢) هكذا هي في المخطوطة ، ولعله يقصد أن امرأته ستتزوج بعده ، ويتمتع بماله زوجها ، وابنه سيرثه كذلك ، وتتمتع بميراثه امرأته وأولاده ، وزوج ابنته كذلك سيتمتع بهذا المال ، وهكذا .

(٣) هي هكذا في المخطوطة وهو القائم على أمور صدقاته إن كان غنياً .

لهم المهنا ، وعليه الوبال . مثقل ظهره بأوزاره ، معذب بما كسبت يداه : يا حسرة عليه إذا قامت عليه وعلى أهله القيامة[1]» .

ومنها : قال تعالى لبني إسرائيل :

«رغبناكم في الآخرة فلم ترغبوا ، وزهدناكم في الدنيا فلم تزهدوا ، وخوفناكم النار فلم تخافوا ، وشوقناكم إلى الجنة فلم تشتاقوا ، وانحينا[2] ؟ عليكم فلم تبكوا : بشر القتالين إن الله تعالى له ساق[3] لا ينام ، وهو نار جهنم» .

وقال عيسىٰ (ع) :

«صم عن الدنيا ، واجعل فطرك الموت ، وكن كالمداوي جرحه بالدواء خشية أن ينقض عليه ، وعليك بكثرة ذكر الموت ، فإن الموت يأتي إلى المؤمن بخير لا شر بعده ، وإلى الشرير بشر لا خير بعده» .

وقال علي (كرم الله وجهه) :

«الفضلاء صحبوا الدنيا بأجساد أرواحها معلقة بالمحل الأعلىٰ» .

ومما وجد في بعض كتب بني إسرائيل في صفة خلق آدم ، وتكوين جسده حين أبدعه الله عزّ وجلّ ، وأخرجه ، قال تعالىٰ :

«إني خلقت [آدم][4] وركبت بدنه من أربعة أشياء ، ثم جعلتها وراثة في ولده وذريته ، تنشأ في أجسادهم ، وتموت عليها إلى يوم القيامة ، وذلك : إني ركبت جسده من رطب ويابس ، وسخن

(١) في المخطوطة «إذا قامت عليه قيامته وعلى أهله القيامة» .

(٢) في المخطوطة : «ونحنا» ولا شك إنها من خطأ النسخ ، وفي القاموس المحيط «وانحى له السلاح : ضربه» وهي أقرب إلى الصواب ، والله تعالى أعلم .

(٣) هكذا هي في المخطوطة . ولعلها من قوله تعالى : ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾ فإن السقي دائم لا ينقطع في جهنم .

(٤) ليست في المخطوطة ، ولا بد منها .

وبارد ، وذلك إني خلقته من تراب وماء ، ثم نفخت فيه نفساً وروحاً ، فيبوسة جسده من قبل التراب ، ورطوبته من الماء ، وحرارته من النفس ، وبرودته من الروح» .

ثم جعلت في الجسد بعد هذا : أربعة أنواع أُخر ، هنّ ملاك الجسد ، لا قوام للجسد إلاّ بهن ، ولا تقوم واحدة منهن إلاّ بالأخرىٰ وهن : المرة السوداء ، والمرة الصفراء ، والدم ، والبلغم .

ثم اسكنت بعضهم في بعض ، فجعلت مسكن اليبوسة في المرة السوداء ، ومسكن الحرارة في المرة الصفراء ، والرطوبة في الدم ، والبرودة في البلغم .

فأي جسد أعتدلت فيه هذه الأخلاط الأربعة التي جعلتها (ملاكة)[1] وقوامه ، وكانت كل واحدة منهن ريعاً ، لا يزيد ولا ينقص : كملت صحته واعتدلت بنيته .

فإن زادت واحدة منهن على أخواتها ، وقهرتهن ومالت بهن : دخل السقم على الجسد من نواحيهن بقدر قلتها عنهن ، وضعفت طاقتها عن مقاومتهن .

ثم علمته الطب والدواء : كيف يزيد في الناقص ، وينقص في الزوائد حتى يعتدل ويستقيم أمر الجسد .

فالطبيب الفاره[2] ، العالم بالدواء والداء : هو الذي يعلم من أين دخل السقم على الجسد ؟ أم من اين الزيادة ؟ أم من أين النقصان ؟ ويعلم الدواء الذي يعالج به ، فيزيد في ناقصها ، وينقص من زائدها ، حتى يستقيم أمر الجسد على فطرته ، ويعدل الشيء بأقرانه[3] .

---

(١) في المخطوطة «ملائكة» .

(٢) في المصباح «الفاره : الحاذق بالشيء» .

(٣) فتعود قوة الجسم كما كانت مستقيمة سليمة .

ثم صيرت هذه الأخلاط التي ركب عليها الجسد ، فطرة ، وأصولها عليه تبنى أخلاق بني آدم ، وبها يوصفون .

فمن التراب العزم ، ومن الماء اللين ، ومن الحرارة الحدة ، ومن البرودة : الأنانية .

فإن مالت به اليبوسة وأفرطت : كان عزم قساوة وفظاظة .

وإن مالت به الرطوبة : كان لينه : توانياً ومهانة .

وإن مالت به الحرارة : كان حدته طيشاً وسفاهة .

وإن مالت به البرودة : كانت أنانيته . . . وبلادة[1] .

فإذا اعتدلت أخلاقه ، واستقام أمره ، وكان عازماً في إنابته ليناً في عزمه «متهادياً»[2] في لينه ، متأنياً في حدته ، لا يغلبه خلق من أخلاقه ، ولا يميل به طبيعة «من طبائع أخلاقه»[3] عن المقدار المعتدل ، من أيها شاء استكثر ، ومن أيها شاء قلّل ، وكيف شاء عدل .

ثم نفخت فيه من روحي ، وقرنت الجسد : نفساً وروحاً .

فبالنفس يسمع ابن آدم ، ويبصر ، ويشم ، ويذوق ، ويلمس ، ويحس ، ويأكل ، ويشرب ، وينام ، وينتبه ، ويضحك ، ويبكي ، ويحزن .

وبالروح : يعقل ، ويفهم ، ويدري ، ويعلم ، ويستحيي ، ويحلم ، ويحذر ، ويتقدم ، ويمتع ، ويتكرم ، ويقف ، ويهيج .

فمن النفس يكون : حدته ، وخفته ، وشهوته ، ولعبه ، ولهوه ،

---

(١) بذل الأصفار كلمة لم نستطيع قراءتها قبل «وبلادة» .

(٢) في المخطوطة «تهادياً» .

(٣) في المخطوطة «من طبائع من أخلاقه» .

وضحكه ، وسفهه ، ومكره ، وخداعه ، وعنفه ، وخرقه .

ومن الروح : علمه ، ووقاره ، وعفافه ، وحياؤه ، ووفاؤه ، ويكون صدقه ، ورفعته ، وصبره .

فإذا خاف ذو اللب : أن يغلب عليه خلق من أخلاق النفس ، قابله بضده من أخلاق الروح ، وألزمه إياه ليعدله ويقومه ، فيقابل الحدة بالحلم ، والخفة بالوقار ، والشهوة بالعفاف ، واللعب بالحياء ، واللهو بالنهي ، والضحك بالعزم ، والفظاظة بالكرم ، والخداع بالصدق ، والعنف بالرفق ، والخرق بالصبر .

ومن التراب يكون : قساوته ، وبخله ، وفظاظته ، وشحه ، واياسه وقنوطه ، وعزم إصراره .

ومن الماء يكون : سهولته ، ولينه ، واسترساله ، وتكرمه ، وسماحته ، وقربه ، وقبوله ، ورجاؤه ، واستبشاره .

فإذا خاف ذو اللب أن يغلب عليه خلق من أخلاقه الترابية ، قابله بضده من الأخلاق المائية ، وألزمه إياه : ليعدله ، ويقومه فيقابل القسوة باللين ، والبخل بالعطاء ، والفظاظة بالكرم ، والشح بالسماحة ، واليأس بالرجاء ، والقنوط بالاستبشار ، والعزم بالقبول ، والإصرار بالتوبة .

وذكر أن بعض العارفين بالله تعالى اجتاز مرة في بعض سياحته براهب في صومعة على رأس جبل ، فوقف بإزائه ، فناداه : يا راهب :

فأخرج الراهب رأسه من صومعته ، وقال : من ذا ؟

قال : رجل من أبناء جنسك الآدميين .

قال : فماذا تريد ؟

قال : كيف الطريق إلى الله تعالى ؟

قال الراهب : في خلاف الهوى .

قال : فما خير الزاد ؟

قال : التقـــوى .

قال : تباعدت عن الناس ، وتحصنت في هذه الصومعة[1] ؟

قـال : مخـافـة على قلبي من «معـاشـرتهم» وحـذراً على عقلي : أجيره من سوء عشرتهم ، وطلبت راحة نفسي عن مقاساة مـداراتهم[2] ، وقبيح فعالهم ، وجعلت معاملتي مع ربي ، فاسترحت منهم .

قال : فخبرني يـا أحد أتبـاع المسيح[3] ، كيف وجـدتم معاملتكم مـع ربكم ، وأصدق القـول لي ، ودع عنـك تـزويق الكـلام ، وزخـرف القول .

فسكت الراهب طويلاً ، ثم قال :

شر معاملة تكون .

قال له : كيف ؟

قـال : لأنه أمـرنـا بـالكـد لـلأبـدان ، وجهـد النفـوس ، وصيـام النهـار ، وقيام الليـل ، وترك الشهـوات المركـوزة في الجبلة ، ومخالفـة الهـوى الغالب ، ومجـاهدة العـدو المسلط ، والرضي ، والخشـونـة في العيش ، والصبر على الشدائد والبلوى .

---

(١) هكذا هي المخطوطة ، وهي استفهام بالأسلوب .

(٢) المـدارة نوع من الممـارسة في الشيء ، وهي تحتـاج إلى عقل رصين يحسن صـاحبه كيف يتفادى الناس ولا يجاريهم في سفههم .

ومـن لـم يـمـارس فـي أمـور كـثـيـرة
يـضـرس بـأنـيـاب ويـوطـأ بـمـنـسـم

(٣) من كان بهذه الصفة التي ذكرها ذلك الراهب : كان من أتباع المسيح (ع) حقـاً ، وليس من الشياطين والأبالسة الذين نراهم اليوم .

وسترى فيما بعد أنه أسلم بمجرد الدعوة ، لأنه العقيدة واحدة .

ومع ذلك كله : جعل الأجر بالنسبة [في الآخرة بعد الموت](١) مع بعد الطريق ، وكثرت الشكوك والحيرة ، والخوف من الناس .

فهذه حالنا في معاملتنا مع ربنا ، فخبرني عنكم يا معشر أتباع أحمد ، كيف وجدتم معاملتكم مع ربكم ؟

قال له المجتاز : [خير معاملة تكون](١)وأحسنها .

قال له : صف لي ما هي ؟ وكيف هي ؟

قال له المجتاز : ربنا أعطانا سلفاً كثيراً قبل العمل ، ومواهب جزيلة لا تحصىٰ فنون أنواعها من النعم ، والافضال قبل المعاملة .

فنحن لينا ونهارنا في أنواع نعمة ، وفنون من آلائه ـ ما بين سالف معتاد ، وآنف مستفاد ـ .

قال له الراهب : فكيف خصصتم بهذه المعاملة دون غيركم ، والرب واحد ؟

قال : أما النعمة والافضال والإحسان ، فعموم للجميع ، قد غمرتنا كلنا .

ولكنا خصصنا بحسن الاعتماد ، وصحة الرأي ، والإقرار بالحق ، والإيمان ، والتسليم له ، وصدق المعاملة : من محاسبة النفس ، وملازمة الطريق ، وتفقد تصاريف الأحوال الطارئة من الغيب ، ومراعاة القلب بما يرد عليه من الخواطر والوحي(٣) والإلهام ساعة فساعة .

---

(١) هكذا في المخطوطة ، وقوله : بالنسبة : أي بالقدر والقيمة .

(٢) في المخطوطة «ربنا خير معاملة تكون» وهي إن صحت في الأصل الذي نقل عنه فعلى تقدير «عاملنا ربنا» . . . الخ .

(٣) الإرشاد الإلهي عن طريق القلب ، ومنه قوله تعالى : ﴿وأوحينا إلى أم موسىٰ أن أرضعيه﴾ والله تعالى أعلم .

قال الراهب : زدني في البيان ؟

قال المجتاز : أزيدك ، اسمع ما أقول ، وأفهم ما تسمع ، واعقل ما تفهم .

«إن الله جل بقاؤه : لما خلق الإنسان من طين ، ولم يكن قبل شيئاً مذكوراً ، ثم جعل نسله من ماء مهين - نظفة في قرار مكين - ثم قلبه حالاً بعد حال : تسعة أشهر ، إلى أن أخرجه هناك خلقاً سوياً ، بنية صحيحة ، وصورة تامة ، وقامة منتصبة ، وحواس سالمة ، ثم زود من هنا[1] لبناً خالصاً لذيذاً سائغاً للشاربين : حولين كاملين[2] ثم رباه وأنشأه وأنماه بفنون لطفه ، وغرائب حكمته ، إلى أن بلغه أشده واستوى ، ثم آتاه حكماً[3] وعلماً ، وأعطاه : قلباً ذكياً ، وسمعاً وعياً ، وبصراً حاداً ، وذوقاً لذيذاً ، وفماً طيباً ، ولمساً ليناً ، ولساناً ناطقاً ، وعقلاً صحيحاً ، وفهماً جيداً ، وذهناً صافياً ، وتمييزاً وفكرة ، ورؤية وإرادة مشيئة ، واختياراً وجوارح طائعة ، ويدين صانعتين ، ورجلين ساعيتين ، ثم علمه الفصاحة والبيان ، والصنائع والحرف ، والحرث والزراعة ، والبيع والشراء ، والتصرف في المعاش ، وطلب وجوه المنافع ، واتخاذ البنيان ، وطلب العزة والسلطان ، والأمر والنهي ، والرئاسة ، والتدبير والسياسة ، وسخر له ما في الأرض جميعاً[4] : من الحيوان والنبات وجواهر المعادن ، فغدا متحكماً عليها : تحكم الأرباب[5] متصرفاً فيها تصرف الملاك ، متمتعاً بها إلى حين .

---

(١) لعله أشار المجتاز إلى «ثندوته» ، وهي مكان «الثدي» من المرأة .

(٢) من قوله تعالى : ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ الآية ٢٣٣ من سورة البقرة .

(٣) بمعنى : حكمة .

(٤) من قوله تعالى : ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ الآية : ٢٩ من سورة البقرة ، وقوله تعالى : ﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ الآية : ١٣ من سورة الجاثية .

(٥) أرباب الشيء : المالكون له ، فرب الدار : مالكها ، ومنه قوله تعالى في سورة يوسف =

ثم إن الله جلَّ ثناؤه : أراد أن يزيد في فضله وإحسانه ، وجوده وأنعامه فناً آخر ، هو أشرف وأجل من هذه التي تقدم ذكرها ، وهو ما أكرم من ملائكته وخالص عباده وأهل وداده في النعيم الأبدي ، الذي لا يشوبه شيء من النقص ، ولا من التنغيص[1] ، إذ كان نعيم الدنيا مشوباً بالبؤس ، ولذاتها بالآلام ، وسرورها بالحزن ، وفرحها بالغم ، وراحتها بالتعب ، وعزها بالذل ، وصفوها بالكدر ، وغناها بالفقر ، وصحتها بالسقم .

وأهلها فيها : معذبون في صورة المنعمين ، مغرورون في صورة الواثقين ، مهانون في صورة المكرمين ، وجلون في صور المطمئنين ، خائفون مترددون بين المتضادين : نور وظلمة ، وليل ونهار ، وصيف وشتاء ، وحر وبرد ، ورطب ويابس ، وعطش وري ، وجوع وشبع ، ونوم ويقظة ، وراحة وتعب ، وشباب وهرم ، وقوة وضعف ، وحياة وموت ، وما يشاكل هذه الأمور التي أهل الدنيا وأبناؤها فيها مترددون ، مدفوعون إليها ، متحيرون .

فأراد ربي ـ أيها الراهب ـ أن يخلصهم من هذه الأمور ، والآلام المشوبة باللذات ، وينقلهم منها إلى : نعيم لا بؤس فيه ، ولذة لا ألم فيها ، وسرور بلا حزن ، وفرح بلا غم ، وعز بلا ذل ، وكرامة بلا هوان ، وراحة بلا تعب ، وصفو بلا كدر ، وأمن بلا خوف ، وغني بلا فقر ، وصحة بلا سقم ، وحياة بلا موت ، وشباب بلا هرم ، ومودة بين أهلها ، وزينة .

فهم في نور لا يشوبه ظلمة ، ويقظة بلا نوم ، وذكر بلا

- (ع) : ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ عزيز مصر ، الذي هو في داره ، ومنها قوله تعالى : ﴿اذكرني عند ربك﴾ وهو الملك .

(١) المقصود : إنه لا هو ناقص ، ولا منغص أحد .

غفلة[1] ، وعلم بلا جهالة ، وصداقة بين أهلها بلا عداوة ، ولا حسد ، ولا غيبة ـ أخواناً على سرر متقابلين ـ آمنين مطمئنين ، أبد الآبدين .

ولما لم يمكن الإنسان أن يكون بهذا الجسد الحسي ، والجسم الطويل العريض العميق المظلم ، المركب من أجزاء الأركان المتضادة ، المؤلف من الأخلاط الأربعة ، إذ كان هذا لا يليق بتلك الأوصاف الصافية ، والأحوال الباقية ، فاقتضت العناية بواجب حكمة الباري جل ثناؤه : أن ينشيء خلقاً نشأ آخر ، كما ذكر في قوله تعالى : ﴿**ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون**﴾ النشأة الآخرة ، ﴿**إن الله على كل شيء قدير**﴾ فبعث الله جل ثناؤه لهذا السبب أنبياء إلى عباده ، يبشرونهم بها ويدعونهم إليها ، ويرغبونهم فيها ، ويدلونهم على طريقها : يطلبونها : مستعدين قبل الورود إليها .

ولكيما يسهل عليهم مفارقة مألوفات الدنيا من شهواتها ولذاتها ، ويخفف عليهم أيضاً شدائد الدنيا ومصائبها ، إذ كانوا يرجون بعدها ما يعمرها : ويمحو ما قبلها من نعيم الدنيا وبؤسها ، ويحذرون فوت نعيمها[2] ، فإنه من فاتته فقد خسر خسراناً مبيناً .

فهذا هو ديننا واعتقادنا ـ يا راهب ـ في معاملتنا مع ربنا وبهذا الاعتقاد طاب عيشنا في الدنيا ، وسهل علينا الزهد فيها وترك

---

(١) كما قال رسول الله (ص) :

«ان أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ، ولا يتفلون ولا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يمتخطون .

قالوا : فما بال الطعام :

قال : جشاء ، [أو رشح] كرشح المسك ، يلهمون التسبيح والتحميد ـ وفي رواية : «التكبير» ـ كما تلهمون النفس رواه مسلم ، ورواه الإمام أحمد ، وأبو داوود ، وغيرهم .

(٢) «ويحذرون فوت نعيمها» الضمير فيها راجع إلى الجنة .

شهواتها ، واشتدت رغبتنا في الآخرة ، وزاد حرصنا في طلبها ، وخف علينا كد العبادة ، فلا نحس بها ، بل نرى ذلك نعمة وكرامة ، وعزاً وشرفاً ، حين جعلنا أهلاً أن نذكره ، إذ هدى قلوبنا وشرح صدورنا ، ونور أبصارنا ، لما تعرف إلينا بكثرة أعمالنا[1] وفنون إحسانه» .

فقال الراهب : جزاك الله خيراً من واعظ ما أبلغه ، ومن ذاكر أحسانه ما أرفعه ، ومن هاد رشيد : ما أبصره ، وخطيب رفيق : ما أحزمه ، ومن أخ ناصح : ما أشفقه[2] .

وقال لقمان لابنه : «يا بني جالس العلماء ، وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله جل ثناؤه يحيي القلوب الميتة بنور العلم ، كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء ، وإياك ومنازعة العلماء ، فإن الحكمة نزلت من السماء صافية ، فلما تعلمها الرجال : صرفوها إلى هوى نفوسهم» .

وقال بعضهم : «مثل العالم الراغب في الدنيا ، الحريص في طلب شهواتها ، كمثل الطبيب المداوي غيره المرض نفسه ، فلا يرجى منه الصلاح ، فكيف يشفي غيره ؟»[3] .

---

(١) بكسر الهمزة لا بفتحها : يعني استعملنا في الخير ، وجعلنا من أهله ، فالحمد لله على فضله وجوده ، قال تعالى : ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ الآية : ٥٨ من سورة يونس (ص) وقال رسول الله (ص) :
«إنكم تدخلون الجنة بفضل الله ، وتقتسمونها بأعمالكم» .

(٢) ومعنى هذا : إن الراهب اهتدى وأسلم ، والحمد لله رب العالمين .

(٣) وقال بعض أفاضل العلماء العاملين (رضي الله عنهم) :
«إذا اشتغل العلماء بجمع المال الحلال : صارت العوام تأكل الشبهة ، وإذا صارت العلماء تأكل الشبهة : صارت العامة تأكل الحرام ، وإذا صارت العلماء تأكل الحرام : صارت العوام كفاراً ، لأن العلماء إذا جمعوا الحلال فالعوام يقتدون بهم في الجمع ، ولا يحسنون العلم ، فيقعون في الشبهة .
وأما إذا أخذ العلماء من الشبهة ، وتحرزوا عن لحرام ، فيقتدي بهم الجهال ، ولا يميزون بين الشبهة والحرام ، فيقعون في الحرام .
فإذا أخذ العلماء من الحرام : اقتدى الجهال بهم ، وظنوا أنه حلال ، فيكفرون إذا استحلوا الحرام» أ . هـ والله تعالى أعلم .

وقال عيسى (ع) ، وفي بعض مواعظه لبني إسرائيل :

«أيها العلماء ، وأيها الفقهاء : قعدتم على طريق الآخرة ، فلا أنتم تسيرون إليها فتدخلون الجنة ، ولا تتركون أحداً يجوزكم ويصل إليها» .

وإن الجاهل أعذر من العالم ، وليس لواحد منهما عذر[1] .

وقال بعضهم : «من ترك الشغل بفضول الدنيا ، فهو : زاهد .

ومن أنصف في المودة : وقام بحقوق الناس ، فهو : متواضع .

ومن كظم الغيظ ، واحتمل الضيم ، والتزم الصبر فهو : حكيم .

ومن تمسك بالعدل ، وترك فضول الكلام ، وأوجز في النطق ، وترك ما لا يعنيه ، واقتصر في أموره ، فهو : عابد» .

وقيل : إن ولياً من أولياء الله تعالى لما تفكر في أمر التكليف ، والبلوى ، ولم يتجه ، وجه الحكم فيها ، قال في مناجاته : ونادى ربه :

«يا رب خلقتني ولم تستأمرني ، وتميتني ولا تستشيرني ، وأمرتني ونهيتني ولم تخبرني ، وسلطت على هوي مردياً ، وشيطاناً مغوياً ، وركبت في نفسي شهوات مركوزة ، وجعلت بين عيني دنيا مزينة ، ثم خوفتني ، وزجرتني بوعيد وتهديد ، فقلت ـ استقم كما أمرت ـ ـ أو ـ لا تتبع الهوى فيضلك عن سبيلي ـ واحذر الشيطان أن يغويك ، والدنيا أن تغرك ، وتجنب شهواتك لا ترديك ، وآمالك وأمانيك لا تلهيك ، وأوصيك بأبناء جنسك فدارهم ، ومعيشة الدنيا فاطلبها من حلال ، والآخرة فلا تنسها ، ولا تعرض عنها فتخسر الدنيا والآخرة **﴿ذلك هو**

---

(١) لا يعذر الجاهل بجهله ، لأنه سيقال له : لم لم تتعلم ، أما العالم فمصيبته أشد المصائب ، لأن مصيبة الجاهل على نفسه ، وأما العالم فمصائب الناس على رأسه ، ونعوذ بالله من علم نهايته إلى النار

الخسـران المبين﴾ فقـد فصلت يـا رب بين أمـور متضـادة ، وقـوى متجاذبة ، وأحوال متباينة ، فلا أدري كيف أعمل ولا أهتدي .

أي شيء أصنع وقد تحيرت في أمـوري وضللت في حيـرتي ، فـأدركني يـا رب ، وخـذ بيـدي ، ودلني على سبيـل نجـاتي ، وإلاّ هلكت» .

فـأوحى الله إليه ، وأنقى في سـره وألهمـه إيـاه ، فقـال لـه : « عبـدي ، إنما أمرتـك[1] لتعلم أن لـك رباً هـو خـالقـك ورازقـك ، ومصورك ومنشئك ، وحافظك وهاديك ، وناصرك ومغنيك .

ولتعلم أيضـاً بـأنـك محتـاج - في جميـع مـا نهيتـك عنه - إلى عصمتي وحفـظي ورعـايتي ، وإنـك لي محتـاج في جميـع تصـرفـاتـك وأحـوالـك : في جميـع أوقـاتـك ، ومن أمـور دنيـاك وآخـرتـك ، ليـلا ونهـاراً ، فـإنــه لا يخفي على من أمورك صغيـر ولا كبيـر ، ولا سـر ولا عـلانية ، وليتبين لـك ، وتعرف أنـك مفتقر ومحتـاج إلي ، فلا بـد لـك مني ، فعنـد ذلك : لا تعـرض عني ، ولا تشـاغـل عني ، ولا تنسني ، ولا تتشـاغل بغيـري ، بل تكـون في دائم الأوقات في ذكـري ، وجميـع حـوائجـك تسـألني ، وفي جميـع متصـرفـاتـك تخـاطبني ، وفي جميـع خلواتـك تناجيني وتشـاهدني وتـراقبني ، وتكون منـقـطعـاً إلى من جميـع خلقي ، ومتصـلا بي دونهم ، وتعلم بـأني معـك : حيث مـا تكـون قدامك[2] . وإن لم تـرني ، فإذا أردت هـذه كلها ، وتنقلب ، وبـان لك حقيقـة ما قلته ، وصحة مـا وصفت : تركت كـل شيء وراءك ، وأقبلت إلي وحدك .

---

(١) في المخطوطة : «عبدي فعلته لمن إنما أمرتك» وواضح أنه خطأ من النـاسخ ، أو فيه كلام منطوط ، والله تعالى أعلم .

(٢) كما تقول لرجل آخر : أنني قدامك في هذا الأمر كناية عن الإعانة والعناية به .

فعند ذلك : أقربك مني ، وأوصلك إلي ، وأرفعك عندي ، وتكون من أوليائي وأصفيائي وأهل جنتي ، في جواري ، مع ملائكتي ، مكرماً مفضلاً مسروراً ، فرحاناً منعماً ، ملذذاً ، آمناً ، تبقى سرمداً أبداً دائماً .

فلا تظن بي يا عبدي سوءاً ، ولا تتوهم على غير الحق ، واذكر سالف أنعامي ، وقديم إحساني إليك ، وجميل الآئي لديك ، إذ خلقتك ﴿ولم تك شيئاً مذكوراً﴾ خلقاً سوياً ، وجعلنا لك سمعاً لطيفاً ، ونظراً حاداً ، وحواس دراكة ، وقلباً ذكياً ، وفهماً ثاقباً ، وذهناً صافياً ، وفكراً لطيفاً ، ولساناً فصيحاً ، وعقلاً رصيناً وبنية تامة ، وصورة حسنة ، وحساً دراكاً ، وأعضاء صحيحة ، وأدوات كاملة ، وجوارح طائعة .

ثم ألهمتك الكلام والمقال ، وعرفتك المنافع والمضار ، وكيفية التصرف في الأموال والصنائع والأعمال ، وكشفت الحجب عن بصرك ، وفتحت عينيك للنظر إلى ملوكتي ، وترى مجاري الليل والنهار ، والأفلاك الدوارة ، والكواكب السيارة ، وعلمتك حساب الأوقات والأزمان ، والشهور والأعوام ، والسنين والأيام ، وسخرت لك ما في البر والبحر من المعادن والنبات والحيوان ، تتصرف فيها تصرف الملاك ، وتتحكم عليها تحكم الأرباب .

فلما رأيتك متعدياً جائراً ، باغياً خائناً ، ظالماً طاغياً ، متجاوزاً الحد والمقدار ، والعدل والانصاف ، والحق والصواب ، والخير والمعروف ، والسيرة العادلة : ليدوم لك الفضل والنعيم ، وينصرف عنك الأذى والنقم ، وعرضتك لما هو خير لك وأفضل وأشرف ، وأعز وأكرم ، وألذ وأنعم .

ثم أنت تظن في ظنون السوء ، وتتوهم على غير الحق .

يا عبدي : إذا تعذر عليك فعل شيء مما أمرتك به فقل : لا

حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم ، كما قالت حملة العرش لما ثقل عليهم حمله .

فإذا أصابتك مصيبة فقل -﴿انا لله وإنا إليه راجعون﴾ كما يقول أهل صفوتي ومودتي .

وإذا زلت بك القدمان في معصيتي ، فقل كما قال صفيي آدم وزوجته - (ع) ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ .

وإذا أشكل عليك أمر ، وأهمك رأي ، أو أردت رشداً وقولاً صواباً ، فقل كما قال خليلي إبراهيم (ع) ﴿الذي خلقني فهو يهدين * والذي هو يطعمني ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذي يميتني ثم يحيين * والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين * رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين * واجعل لي لسان صدق في الأخرين * واجعلني من ورثة جنة النعيم * واغفر لأبي إنه كان من الضالين * ولا تخزني يوم يبعثون * يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلاَّ من أتى الله بقلب سليم﴾(١) .

وإذا أصابتك مصيبة غم ، فقل كما قال يعقوب : ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ .

وإذا جرت خطيئة ، فقل كما قال كليمي موسى (ع) ﴿هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين﴾ .

وإذا صرفت عنك معصيتي ، فقل كما قال يوسف (ع) ﴿ما

(١) الآيات من ٧٨ - ٨٩ من سورة الشعراء ، وليست هذه الآيات كلها في المخطوطة ، وإنما فيها[﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾ إلى قوله : ﴿إلاَّ من أتى الله بقلب سليم﴾] : فأوردت الآيات كاملة إتماماً للفائدة .

أبـرىء نفسي إن النفس لأمارة بـالسوء إلاَّ مـا رحم ربي إن ربي غفور رحيم﴾[1] .

وإذا أبتليت بفتنة ، فافعـل كما فعـل داوود خليفتي **﴿فاستغفـر ربه وخر راكعاً وأناب﴾** .

وإذا رأيت العصـاة من خلقي ، والخاطئين من عبـادي ، ولم تـدر مـا حكمي فيهم ، فقـل كمـا قـال المسيـح (ع) : **﴿إن تعـذبهم فـإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾** .

وإذا استغفـرتني وطلبت عفـوي ، فقـل كمـا قـال حبيبي محمـد (صلوات الله عليه وعلى أنصاره) **﴿ربنـا لا تؤاخذنـا إن نسينا أو أخـطأنا ربنـا ولا تحمل علينـا اصراً كمـا حملته على الـذين من قبلنا ربنـا ولا تحملنا ما لا طاقة لنـا بـــه وأعـف عنـا واغفر لنـا وارحـمنــا أنت مـولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾** .

وإذا خفت عـواقب الأمور ، ولم تـدر بمـاذا يختم لـك فقـل كمـا يقول أصفيائي : **﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هـديتنا وهب لنـا من لدنـك رحمة أنك أنت الوهاب * ربنا إنك جامع النـاس ليوم لا ريـب فيـه إن الله لا يخلف الميعاد﴾** .

---

(١) في الواقع أن هذا الكلام من كلام امرأة العزيز ، لأن سيـاق الكلام يقتضي هـذا ، وأما الذي قاله ذلك الولي : فله فيه سلف منهم مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، وابن أبي الهذيـل ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والسدي وغيرهم .

قال ابن كثير (رحمه الله تعالى)ـ وكان قد ذكر أن هذا الكلام : كلام المـرأة ، لا كلام يوسف (ص) ـ ، قال : «والقـول الأول أقوى وأظهـر ، لأن سياق الكـلام كله من كلام امـرأة العزيـز بحضرة الملك ، ولم يكن يـوسف (ع) عندهم ، بـل بعد ذلـك أحضـره الملك» . اهـ .